الفصل الرابع

احتوا الثقافة :

ان ثقافة كل حضارة من حضارات مصر المختلفة تعتبر صنوا لهذه الحضارة فهى ترتبط بها وتنتمى اليها وتتصل فى عضوية وتكامل بها · وفى الانتقال من حضارة الى حضارة لا تستطيع ان تقول ان الحضارة الجديدة تنفصل عن سابقتها تماما فربما تتغير أشكال الحضارة الجديدة بمظهرها المرىء للعين عن مظاهر الحضارة السابقة ولكنها مع ذلك تحمل فى طياتها جذور القديم وما سبقها من حضارات ، لوحظ مثلا فى الأماكن الشعبية تلك الأماكن التى تمثل الانسان المصرى العادى الذى يمتد مع التاريخ والزمن حاملا ثقافة مصر ـ ان الانسان يضع دائما بصماته على كل شىء جديد دخيل عليه سواء أكان فى الفكر أو كان منتجا قادما من أى ثقافة أخرى غير ثقافة مصر · فى الأماكن الشعبية يضعون لمساتهم ويضيفون الى الجديد شيئا من ثقافة مصر العميقة الجذور الممتدة عبر آلاف السنين وهم باضافاتهم هذه انما يمثلون التمسك والوفاء والعرفان بما قد خلفه لهم الاجداد من فكر وتقاليد وعادات · ذلك التمسك يعد سمه من سمات شعب مصـــر ، ان ما يملكه المصـــرى من ثقافة عميقة الجذور بالارض يبدو أنه من الصعب عليه التنصـــــل منها بسهولة والتنكر لها واستبدالها بالجديد النازح وهو فى تقبله الجديد انما يتقبله بهـــدوء ، يراوغه ويراوضه ، لا يتخلل هذا الجديد الى أعماقه مباشرة بل يظل على جلده الخارجى ويظل هكذا على السطح مدة يتسرب بعدها وتتشربه ثقافته العميقة وتذيبه فى كيانها ·

ان ما يجتاح مصر من مؤثرات ثقافية عالمية تظل بعض الوقت ، على الاقل ، على سطح الثقافة المصرية ولا تنفذ الى القاع مباشرة · فعلى الرغم من وجود الثقافة الغربية في مصر منذ عام ١٧٩٨ ظلت مصر محتفظة بالكثير من عاداتها وتقاليدها · قد يلبس الناس الملابس والأزياء الغربية كما يستخدمون الكثير من أدوات ومنتجات الغرب ولكنهم مع ذلك لا يزالون يحتفظون بالكثير من عاداتهم وتقاليدهم التى ترتبط بتاريخ مصر الطويل ·

لقد زحفت الحضارة الغربية الاوربية واكتسحت فى طريقها معظم بلدان العالم وهى فى زحفها قد غيرت الكثير من معالم هـذه البلدان · غيرت من قيمهم وعاداتهم بنسب متفاوته وتتجلى هذه النسب تبعا لما لكل أمة من أمم العـالم من تاريخ وثقافة · فهناك من الأمم التى نهلت من الثقافة الغربية واختفى مع ذلك تراثها وتقاليدها · وهناك من الأمم التى ظلت وسوف تظل محتفظة بزمام ثقافتها · ولعله من الأمور الواضحة فى هذا ما نراه فى مصر واليابان فمع تقدم اليابان الصناعى الهائل مازالت لها عاداتها فى طعامها وشرابها وطريقـة حياتها الاجتماعية التى تتصـل بتاريخها وحضارتها القديمة وتاريخ مصر يوضح لنا أنه على الرغم من أنه وفد الى مصر موجات ثقافية عديدة على مر عصورها المختلفة فانه لم تتمكن أى من هذه الموجات من طمس معالم ثقافتها أو حتى تغير طباع أهلها وان نجحت بعض هذه الثقافات فى الضغط ومحاولة طمس ثقافتها فانها لم تتمكن فى النهاية من البقاء بل استطاعت مصر بما تملكه من ثقافة عميقة تمتد جذورها عبر القرون الى امتصاص كل هـذه الموجات واحتوائها بين جنباتها ·

نمو الثقافة فى مصر :

ان فيضان نيل مصر كل عام بما يجلبه من مياه تحمل وتذيب فى طريقهـا ملوحة الأرض وتلقى بها فى البحر الأبيض المتوسـط بدلا من

استقرارها فى الارض الزراعية يعد من الأمور التى ساعدت على نمو الزراعة فيها وتبعا لهيرودوت فان مصر كانت أغنى وأسهل تربه فى العالم صالحة للزراعة وهذا على حد تعبير هيرودوت ما جعلها سلة الخبز الشهية لجيرانها من حولها · ان فيضان نيل مصر السنوى ومناخها المعتدل وطبيعة أرضها كل هذا قد ساعد على نمو الحضارة فيها ، تلك الحضارة الفريدة التى نمت حوالى ٤٠٠٠ ق م حيثنهضت ونمتالزراعة المكثفة فيها ، كما نمت القرى والمدن واستؤنس الحيوان ·

ان الشمس بظهورها وغيابها ثم ظهورها ثانية قد لعب دورا فريدا فى نمو عقائدها وأساطيرها . فعالم الموتى ، والحياة بعد الممات وأسطورة ايزيس وأزوريس كان كل ذلك محورا ترتكز عليه الثقافة فى مصر · « لقد علم أوزوريس الرجال والنساء ، علمهم كل الفنون ، انه كان أول من زرع الكرمة ، وهو الذى علم الرجال كيف ومتى يبذرون الحب ، وكيف يزرعون ويعتنون بأشجار الفاكهة وهو الذى جعلهم يتمتعون ويبتهجون بالزهور ، وهو أوزوريس أيضا الذى صنع القوانين وسنها للرجال حتى يستطيعوا العيش معا فى انسجام وتآلف · لقد أعطاهم المعرفة عن العالم . له التبجيل والاحترام » · (Clum, 1930)

المجال العام والخاص للثقافة :

أزدهرت الحضارات فى منطقة الشرق الأوسط وهى فى أزدهارها قد شملت دول المنطقة وارتكزت فترة فى مصر وفترة فى بابل وآشور وفى فينيقيا ثم الى اليونان والى ايطاليا وتركيا وهكذا فانها تنتقل ولكنها فى انتقالها ترتبط بمجال تنحصر فيه ويقال انها انتقلت الى الغرب ثم بعد ذلك عبرت الاطلنطى واستقرت فى أمريكا · وهى فى تحرك دائم ومتصل · والحضارات التى نشأت فى الشرق الأوسط وأزدهرت فى منطقته انما

تشترك جميعا فى سماتها حتى اننا نستطيع أن نقول بأن للبحر الأبيض طرازا معينا يستخدمه الأمريكيون فى تحديد الأساليب والأنماط فى الفن والعمارة والديكور الداخلى والموبيليا والاثاث بأن يقولوا هذا نمط ينتمى الى البحر الأبيض وهو ما يطلقون عليه باللغة الانجليزية mediterranean

وعلى هـــذا فان مصر تشترك مع ما يجاورها من دول المنطقة فى سمات ثقافية مشتركة نستطيع أن تقول بأنها المجال الثقافى الأول ، كمـا أنها من ناحية أخرى تشترك مع بقية دول العالم فى مجال ثقافى ثان · الا أننا نعود ونقول بأن مصر لها ثقافتها الفريدة الممتدة عبر القرون · ذلك أن الثقافة نمت فيها نموا مطردا منذ بدايتها حتى بعد أن أصبحت مصر فى أوج حضارتها وعلى هذا نستطيع أن نقول ان الثقافة فى مصر تقدمت فى ثبات وكما يقول هوايت : "Leslie A. White" « لقد كانت مصر الى حد ما معزولة عن جيرانها تحفها الصحراء والجبال . والبحر من كل جانب فلم يعكر صفوها بأى مؤثرات خارجية· ويستطرد قائلا : اننا نستطيع أن نتتبع نمو الثقافة فيها منذ نشأتها البدائية وحتى بعد أن أصبحت حضارة مصر واحدة من أعظم حضارات العالم القديم · اننا نستطيع أن نتتبع كل تغيير للثقافة فى مصر واحدة بواحدة . كما نستطيع أن نتتبع نموها خطوة بخطوة وأن نرى كيف أن الحقيقة الواحدة أثرت فى غيرها من الحقائق الأخرى · نحن نستطيع أن نحصى ونقوم ، وبخلاصة نستطيع أن نفعل كما يفعل العالم الفيزيائى فى معمله مع الفارق فى أننا لا نستطيع أن نكرر التجربة » ·

طبيعة الثقافة فى مصر :

من خلال تاريخ مصر الطويل نستطيع أن نقف على حقائق عـديدة هامة فى نمو الثقافة وشـــكلها واضطرادها ، واستمرارها من فترة الى فترة ، ولعلنا نستطيع أن نصف الثقافة فى مصر بأنها أشبه ما تكون بجدار

قد غطى بطبقات عديدة الطلاء ، كل طبقة من هذه الطلاءات تمثل حقبة تاريخية من حضاراتها المختلفة . فالجدار بما يحتويه من أحجار يمثل مصر القديمه أما طبقات الطلاء المختلفة فهى العصور القبطية ، والاسلامية ، والحديثة ومن المؤكد انه سوف يكون فى المستقبل طبقات وطبقات . ان شكل الحائط بما يحتويه من أحجار يؤثر فى كل الطبقات التى فوقه يظهر ذلك التأثير فى مناسبات وأماكن وأوقات معينة حيث يظهر تأثير الجدار على بقية طبقات الطلاء ينفذ اليها وتنفذ اليه وعلى سبيل المثال يوجد حول المساجد الشهيرة وأضرحة الأولياء أسواق تنشط بالحرف المختلفة التى أنشئت خصيصا لامداد من يقبل على زيارة هذه الأضرحة والمساجد فى المناسبات الدينية المختلفة – ترتبط معظم هذه الحرف بهذه الاماكن الدينية – تلك الظاهرة تعد امتدادا لما كان يحدث حول المعابد المصرية القديمة فى الماضى والتى مازال أثرها باقيا حتى اليوم متمثلا فى بيع بعض النماذج من التماثيل والتمائم المصرية القديمة التى كانت تباع فى الماضى منذ آلاف السنين حول هذه المعابد فى المناسبات الدينية هذه الرموز والتمائم الصغيرة كانت تعاويذ يستخدمها المصريون تحميهم من الشر وتحفظهم من الحسد والعيون الشريرة ، وتجلب لهم الخير وتباركهم ، كما أنها تقربهم من آلهتهم القديمة فنماذج الجعران المصرى القديم مازالت تباع لتلبس فى شكل أساور أو عقود أو افراط وكذلك « الانكا » مفتاح الحياة وعين « حورس » بما لها من قوة فى حماية حاملها من الحسد . والأمثلة عديدة على بقايا واستمرار أشكال الثقافة عبر التاريخ ، وعصور مصر الطويلة . فالاعتقاد بالخلود والحساب وباليوم الآخر قد انتقل أيضا من المصريين القدماء واستمر هذا الاعتقاد فيما جاء فى المسيحية والاسلام والقرآن الكريم يذكرنا بيوم الحساب والجنه والنار ، ومن خلود دائم للمؤمنين فى جناة ونعيم ، وجحيم لمن عصا الله ورسوله يصلى نارا أبديه .

هذا الفكر الذى امتد على مر العصور قد حدا بكل المصريين فى أن يسلكوا فى حياتهم سلوكا يتصل بالحياة والموت ، والجنه ، والنـــار بل واصبح ذلك الفكر مسيطرا على كل حركة من حركاتهم وتصرفاتهم وانتقل ذلك بدوره فى اللاشعور الجماعى للمصريين فلا يخلوا أى تعامل يومى بين الناس من ذكر كلمات من القرآن تتصل بالحلال ، والحرام ، والصدق ، والكذب ، والأمانة وخشية الله فى التعامل والمعاملة · الأمر الذى نستطيع أن تقول معه بأن المصريين يمتازون بالتدين والوازع الدينى لما قد ترسب فى أعماقهم منذ فجر الحضارة فى مصر ·

لقد كان المصريون القدماء أول من شيد واحترف بنـــاء المقابر فى أشكال نصب ضخمة تختلف عما الفه الانسان من اشكال البناء الأخرى · فهرم سقارة المدرج خير مثال على ذلك ، الأمر الذى يحار المتفرج الحديث عند النظر اليه حيث أنه قد خالف العرف فى أنه مجموعة من المصاطب الحجرية التي تتدرج فى الانحدار والتى لا يظهر فيها ما تعارف الانسان الحديث عليه من فتحات كالنوافذ والمداخل كالأبواب أو البوابات · ذلك الاحتراف فى بنـــاء المقابر بهذه الضـــخامة والذى رأيناه فيما بعد فى الاهرامات العديدة التى تنتشر على أرض مصر وحتى السودان هـــذه التقاليد المصرية القديمـــة مازالت تعمل حتى الآن فان بعض اقباط مصر الأغنياء مازالوا يشيدون مقابر موتاهم شبيهة الى حد ما بتلك المقابر التى كان يقيمها الأجداد من الفراعنة القدماء · ظاهرة أخرى نسوقها زيادة لتأكيد استمرار الثقافة يتناولها كل من المسلمين والأقباط على السواء تلك الظاهرة هى محاولة الاتصال بموتاهم من أقارب وأحبـــاء رحلوا عنهم بالموت الى الدار الآخرة · ينشرون فى الصحف فى مناسبات سنوية حديثا لهم وكأنهم يتحدثون اليهم وهم مازالوا أحياء واعدين لهم باللحاق معبرين لهم عن لوعة الفراق متمنين لهم نعيما مقيما بالجنة ·

تنوعت مظاهر الحضارات المختلفة على أرض مصر ، تنوعت فى أشكال منتجاتها من فن وعمارة وتصوير ، ونحت وهى فى تنوعها فى كل فترة ترتبط بالفكر السائد بها · تبدو هذه الأشكال جديدة ومختلفة عن سابقتها من أشكال الحضارات الأخرى ولكنها فى الحقيقة تتشابك كلها فجذورها ممتدة فى تربة مصر وأرضها · وما يبدو ظاهرا مما خلفته تلك الحضارات من أشكال مرئيه للعين انما يمثل السطح ، أما الجوهر فيعد واحدا متصلا ناميا وممتدا فى الأعماق لا يدرك عمقه الا الدارس المتأنى لمصر ونمو الثقافة فيها ، ومن العوامل التى ساعدت على استمرار الصله بالمنبع والجذور عدة حقائق نذكر منها اثنين :

أولهما : طبيعة أرض مصر وجوها · وثانيهما : السعى وراء البحث عن الوحدانية ·

أولا : طبيعة أرض مصر :

كان لموقع مصر وطبيعة أرضها وجوها أكبر الأثر فى نمو ثقافتها ، فنيلها مازال يجرى من الجنوب الى الشمال يحمل الخير ، ويهب الحياة لكل سكان الوادى · والشمس تلك الظاهرة الابدية التى تدور منذ بدء الخليقة والى الابد ، ومناخ مصر الدافىء وجفاف جوها وضيائها وصفاء سمائها · كل هذه المظاهر قد أثرت وبهرت كل من بنى حضاراتها المختلفة والمتتابعة · أثرت فى كل انسان على أرض مصر بل ونستطيع أن تقول أن هذه المظاهر قد صبغت أهلها وشكلت طباعهم وميولهم فارتبط انسانها بها وتوحد معها واكتنز المزيد من انسانيته بحبه لها فهى بالنسبة اليه العطاء والخير وهو فى سكناه بها علمته السكينة والصبر وعدم التسرع والانفعال ، لم تكن قاسية وانما كانت ولا زالت معتدله فى جوها دافئة فى أعماقها تلك المظاهر انعكست على كل من سكنها فاكسبتهم بذلك عمقا وأصالة وتمسكا بها ·

ثانيا : السعى وراء الوحدانية :

ان نمو الصفات الروحية على أرض مصر تقدم فى ثبات واستمرار من العصور البدائية وحتى اليوم وكما حلل هوايت تاريخ الثقافة فى مصر ناقدا ومتعقبا للعلاقة بين الدولة والدين أو بين الحاكم ورجل الدين خلال العصور المختلفة يكشف لنا كيف أن مصر كانت تتطلع الى الوحدانيـــة Monathism على مر عصورها · فيقول ما معنـــاه أنه فى القرن الرابع عشر قبل المسيحية تجلت أحداث هامة ذلك عندما الغيت وانمحت من الوجود عبادة الآلهة القدامى ما عدا واحدا حيث كان هو سيدهم جميعا وعندما أغلقت المعابد وطرد كهنتها تغيرت مصر واتجهت الى الوحدانية · كيف حدث هذا وما سبب اهتزاز مصر من جذورها وامتداد تأثير ذلك حتى يومنا هذا ؟ انه أخناتون واحد من هذه الأســـباب · ذلك العبقرى الذى استشف ببصيرته طريقا وفلسفة جديدة لحياة جديدة لقد كانت فلسفة الدين فى مصر متجهة الى التوحيد والوحدانية قرونا قبل أن يولد أخناتون · كانت تتجه وتتحرك بطيئة سعيا وتحقيقا لوحدانية الاله وانه لا يوجد الا اله واحد وعقيدة واحدة صادقة · وعلى هذا فنحن لا نستطيع أن نقول بأن أخناتون فقط هو الرجل العظيم الذى حرك وشكل تاريخ الثقافة فى مصر بل والعالم ولكنه أيضا فى رأى البعض (White) كان الأداه الآلهية ، والتى كان من خلاله أول وحى من الله للانسان ــ هذا الوحى قد أتى ولم يكن الوقت آنذاك ناضجا ومهيئا بعد فما زالت الوثنية على أشدها وبهذا ــ كما يقولون أيضا ــ انتقل الوحى من يوسف الى موسى بعد ذلك·

ويرى توماس ماس Thomas Mass أخناتون على أنه كان أداه الوحى الالهى للانسان ولكنه لما كان الرجل ــ أى أخناتون ــ غير مناسب لهـذه المهمـة انتقل الوحى لليهود لتظل هـــذه الرؤية واضحـة حتى مجيء المسيح ·

من هذا يتضح تتبع نمو الصفات الروحية خلال تاريخ مصر وهى

فى نموها وتحركها تجاه الوحدانية انتهت وتوجت بقبول مصر ودخولها فى الاسلام · وفى تقبلها للاســلام فان مصر قد وصــلت الى قمة نموها الروحى فى الوحدانية والتوحيد والهدى للاله الواحد الأحد ، التى ظلت قرونا تزحف وتتشوق لاثباته وذلك قبل أخناتون ، وباخناتون وبأنبياء الله موسى ، وعيسى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم وبالاسلام اكتملت الحلقة وتحقق لها الحلم ·

ان مصر بما تمتلكه من تاريخ طويل وحضارات متعددة انما تشبه فى ذلك الحديقة المليئة بالزهور ، فى هذه الحديقة يتألق المعبد والمســـجد والكنيسة كلها أماكن لذكر الله وعبادته · واذا كنا نتحدث عن انتقال الثقافة واستمرارها فى مصر من عصر الى عصر فان هذا الاتصال ربما لا يظهر للعين والبصر وذلك لما تركته حضاراتها المختلفة من انماط وأشكال عديدة متغيرة ومختلفة ، وهناك صلة بل جذور ممتده فيما رأيناه فى سعيها وراء التوحيد قرونا طويلة · ونبين فى الصفحات القادمة مزيدا من الأمثلة التى تؤكد التواصل والاستمرار لأشكال الثقافة الممتدة فى الأعماق ·